علاقة اللغة بالسياسة

توجد علاقة قوية بين اللغة والسياسة، فاللغة لسان السياسة، والقناة التي تحمل أفكارها وتحقق مقاصدها في الشعب، وهي من أهم وسائل التأثير الجماهيري، فاللغة بمنزلة سلطة أخرى يستخدمها أصحاب القرار في قمع الوجدان الجماهيري والهيمنة عليه، وتستعيض بها عن السلاح في مواجهة الخصوم السياسيين داخلياً وخارجياً، فاللغة السياسية المنتقاة والموجهة لها وقع السلاح في المعارك السياسية، وقد قال معاوية رضى الله عنه : " لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني "، وقد كانت سياسة معاوية حكيمة، وسلاحه فيها الكلمة. واستطاع زعماء سياسيون بسط نفوذهم السياسي من خلال اللغة، وقاد كثير من الثوار ثوراتهم باللغة الخطابية التي أثرت في الجماهير، فانتفضت ضد الأوضاع السياسية وأجابت دعوة زعيمها في منفاه، والنظريات السياسية في الحكم ليست إلا أفكارًا في جمل، يتبناها أحد الثوار، ويقيم دولة عليها، أو يتبناها حزب من الأحزاب في حكمه، وبعض الدول الحديثة يقوم نظامها السياسي على مذاهب فكرية سياسية مادتها الألفاظ، وزعامة الزعماء تنشأ أول الأمر على المنابر السياسية، ثم المواقف التي تصنع الزعماء، والشعب يتعرف على فكر قائده من لغته، فيحدثه حتى يراه، ففضل اللغة على السياسة كفضل الماء على الأحياء، وللسياسة فضل كبير أيضًا على اللغة، ولكنه ليس كفضل اللغة عليها، فالسياسة قد تكون سببًا مباشرًا في انتشار اللغة في مواطن اللغات الأخرى، فتسكن مساكنها، فتصبح اللسان الرسمي، وتصبح هذه اللغات ميتة أو تعيش في أماكن نائية غير رسمية.

ولقوة الدولة دور كبير في انتشارها، فسلطة الأمة وقوة نفوذها يساعدانها على نشر لغتها وثقافتها، والأمم الضعيفة عبيدة لغة الأمم القوية وأسيرة خطابها وسلوكها، وقد اتسعت بعض اللغات باتساع حدود الدولة ونفوذها السياسى والاقتصادى.

واللغة أهم سلاح توظفه السلطة في خدمة مصالحها، وهو غير مكلف ماديًا، وتلقى المفردات السياسية الموجهة دعمًا سلطيًا، يعينها على الانتشار السريع داخلياً وخارجياً بما تملكه من وسائل إعلامية متنوعة، وأعان على ذلك تطور وسائل الاتصال وانفتاح العالم إعلامياً وتواصله السريع، فلم يعد المتلقي أسير الإعلام السلطي الداخلي الموجه إلى مقاصد السلطة، والتي تحرص ليل نهار على تعبئة الجمهور بما تمليه عليه. لقد تحرر المتلقي من الأسر الإعلامي السلطي، وانفتح على العالم الخارجي، وأصبح في تواصل مع القنوات الخارجية

التي تشوبها الشبهة هي الأخرى، بيد أن المتلقي الواعي يستطيع التعرف على الحقيقة من خلال المعلومات المتناقضة التي تقدم إليه في موضوع واحد، وأقل ما يمكن أن يصل إليه من تلك الرسائل المصنوعة سياسياً، أنها ليست كل الحقيقة، وأن مضمونها يحتاج مراجعة، فلا يرتاح إلى كل ما قُدم إليه، وقد افتضحت أنظمة كثيرة كانت تضمن خطابتها أكاذيب وأخباراً مصنوعة تخفي بها الحقيقة أو تعمي بها على الجمهور، وما تقدمه للجمهور من مبررات لتجد لنفسها سبيلاً شرعياً فيما تمارسه من قمع أو ظلم، وتقدم مبرراتها، وما لخصومها، وهي الخصم والحكم! فتحكم بما تراه لنفسها دون أن تعترف بحق خصمها، فالمعارضة أو الرأي الآخر منبوذ وخارج عن النظام، وآثم في كل أمره، وغير شرعي، وهو غائب أو مغيب وليس له حضور، ومصطلح "معارض" في السياسة العربية بمعنى مارق، ويحتاج تصحيحاً إعلامياً، لكنه أخيراً استطاع أن يجد لنفسه حضوراً في القنوات الخاصة التي تتاجر هي الأخرى بالآخر، وتوظفه في تحقيق أرباح عالية، والآخر يرتمي في أحضانها وكأنه وجد مخلصاً، وهو لا يدري أنه رهين المكسب والخسارة والمساومة، وأنه لا يسمح له إلا في إطار ما يحقق أرباحاً لا ما ينصفه، فالقنوات الخاصة يقوم معظمها من أجل المال، لكنها قد تقول الحقيقة المربحة التي تستقطب بها الجماهير، وقد أجازت بعض الدول المتقدمة بعض وسائل الإعلام التي تعبر عن صوت المعارضة، ولكنها ليست حرة في كل أمرها، فلا تقول إلا ما تسمح به السلطة، ومازال خطاب المعارضة غائباً عن الساحة السياسية، والدول الكبرى التي تدعي في نفسها النزاهة والحرية هي نفسها التي تسلب إرادة الدول الضعيفة، ومن يخالف سياستها داخلياً وخارجياً يكون مارقاً أو متطرفاً أو عدواً لمصالح الوطن والأمن القومى.

والدول التي تزعم أنها حضارية، ليست حضارية في كل سلوكها، وليست متحضرة في كل أمرها مع الدول التي تستنزفها، وأياديها ليست نظيفة مع الأنظمة الفاسدة التي تتبعها، وتحقق مصالحها، فمصطلح "دكتاتور" في مفهوم القوة المتسلطة لا يعني صاحب السلطة الغشوم الظالم بل يعني "رجل السلطة المتمرد" الذي لا يوالي دكتاتور العالم الأعظم، فالأخير يصدر قائمة بأسماء الحكام المتعسفين في العالم، ويعني بهم الحكام المارقين الذين لا يخضعون لنفوذه، واستخصلت لهؤلاء مصطلحات مثل: مارق، دكتاتور، فاشي، نازى، دموي، إرهابي، متطرف، متعصب، طاغية، وتتعقب أخباره، وتثير عليه خصومه، وتوظف وسائل الإعلام في إقناع الجماهير بهذه المفردات، ثم تنطلق بعد أن تعد الجماهير نفسياً، - وقد شحنتهم

بالأكاذيب – إلى محاكمته، فلا يجد راثياً أو باكياً أو مخلصاً أو منصفاً، والإعلام السياسي الدولي يضلل الجماهير عن الحقيقة، فلا يقول إلا ما تمليه عليه جماعات خفية ترسم خططها العالمية في الظلام، وتجند الدول الكبرى جنوداً لها في مجال الإعلام يصنعون الأخبار الكاذبة، أو تسرب وكالات الاستخبارات معلومات مصنوعة لأهداف سياسية وعسكرية واقتصادية[1].

وقد تجنّد هذه الوكالات جماعات المقاومة فى بلد يقاتل عدواً؛ وقد يخدع أفرادها بما تقدمه هذه الوكالات من دعم سياسى ومادى، لا لرغبتها فى العدل وحرية الشعب، بل لأن العدو الذى يقاتله رجال المقاومة عدو لها، فتكون من ورائهم حتى تحقق مصالحها، فتنقلب على أصدقاء الأمس فى الصباح، ويصبح المجاهدون متطرفين وأعداء السلام العالمى ومحور الشر وأعوان الإرهاب ويصبح مصطلح "الجهاد" تهمة يؤخذ بها، فالجهاد يعنى فى اصطلاحها الجديد إرهاب وتطرف؛ لأنه ضد مصالحها، وكان جهاداً شرعياً عندما قاتلوا عدو القطب الأعظم.

وتعد السياسة من أقوى المؤثرات في حياة اللغة، لما لها من سلطة نافذة، تستطيع بها اختراق الحجب، وقفز الحواجز، واجتياز الموانع بما تملكه من قوة مؤثرة تستطيع بها توظيف كافة الإمكانات في خدمة مقاصدها وتحقيق أهدافها، فالسياسيون يدعمون كل ما يتعلق بخططهم ومصالحهم، ويؤازرون من يوافقهم، ولهم القدرة على توجيه طاقات رعاياهم إلى أهدافهم المعلنة والخفية، فالناس عبيد أمرائهم، والأمراء عبيد السلطة.

ويضع كل نظام سياسي معجماً خاصاً به، تستطيع أن تتعرف عليه من خلال جملة المفردات التي يرددها، ويمكنك كذلك التعرف على هويته السياسية من خلال مضمون خطابه، فالحقول الدلالية لمادة الألفاظ وكثافتها في خطاب معين تعطيك مؤشراً لفظياً عن اتجاه صاحب الخطاب وانتمائه السياسي، فالمفردات التي يستخدمها الاشتراكيون تميزهم عن المفردات التي يستخدمها الرأسماليون، فالمصطلحات: العدالة الاجتماعية، والانتهازية، الأمة، القومية، الاتحادية، الأنانية، الطبقية، البرجوازية، الإقطاع، سيطرة رأس المال، التقدمية، وغيرها من المصطلحات تتردد كثيراً في معجم الدول الاشتراكية، وتستخدم الرأسمالية في

(١) ارجع إلى كتاب "الحجاب" الذي صدر عن نشاط وكالة الاستخبارات الأمريكية في العالم في الفترة الأخيرة.

مقابل ذلك: رأس المال، الحرية الشخصية، الفردية، وغيرها من المصطلحات التي لا تحمل في مضمونها تكوين جماعي اتحادي تربطه مصالح، فالأول يكرس القوة في الجماعة، ويغيب الذات، والثاني يأله الذات الفردية ويعلو بها، ويقدّس استقلالها.

والسياسيون يضعون ألفاظاً خاصة، وتراكيب تعبر عن فكرهم، ويستخدمون مفردات بدلالات يختارونها ويلزمون الناس تصديقها والعمل بها، ويوظفون لذلك وسائل الإعلام التي تمارس أشكالاً متعددة من القهر والعسف لإرغام المتلقي على الأخذ بهذه المعاني، وتصديق هذه المفردات، فلا يجد مفراً منها، وليس له ملاذ إلا أن يحتبى بها، فتتسرب إلى خطابه وتلزمه في اليقظة والنوم يرددها دون اقتناع بمضمونها، وقد يرد عليها بنكات ساخرة، أو يستخدمها في سياقات أخرى ساخراً منها، وهذا شأن المجتمع المصري الذي يعبر عن رفضه السياسي بنكات ساخرة في ظاهرها ضحكات وفي باطنها عذاب أليم.

وتعمي على المتلقي دلالات المفردات، ومعجم المعاني، وتنقل المفردات من سياقها إلى ما ليست له في أصل الوضع، فالمجاهد إرهابي ومتطرف، والمعارض مخرّب، وموّجه من الخارج ومن الخوارج، أو مارق، وعدو النظام، وتستعين وسائل الإعلام بالصوت والصورة، فترسم للمعارضة مثلاً ثياباً بيضًا قصاراً ولحي، وتصنع أردية أخرى لمن خالفها من كافة الاتجاهات والمشارب، فتسمه بالتطرف والإرهاب، ويصبح مفهوم التدين تطرفًا يستدعي عند المتلقي كافة أشكال الحقب المظلمة في تاريخ الإنسانية، وتصبح الصورة دليلاً على الفرد، ويصبح المعنى سلطاناً على الذهن، ولا يستطيع صاحب المفهوم إزاحته عن نفسه بصوته الضعيف، ويفشل كذلك في وضع مفهوم جديد أو تصور، ويحاول أن يعيد رسم الصورة مرة ثانية بعيداً عن كل ما يربطها بالدلالة الأولى، وهذا يتطلب منه عمراً جديداً، وقد تذهب سدى كل الجهود أمام السيل العرم من التدفق الإعلامي الموظف من السلطة، ومن القوى الخارجية، فيسري سراء النار في الهشيم، فيلتهم كل الجهود، وهذا مصير معظم الخطابات التي لا تجد سلطة تدعمها.

وقد يكون الإعلام المسيس ضعيف الشخصية إمعة يتابع كل الاتجاهات ويحاكي غيره دون نظر فيما سمع أو قلّد، فيردد مراراً ما سمعه تردد الصدى في الجبل الأصم، وقد يكون هذا الصدى نعاقاً عليه ودليلاً يجلب عليه الوحوش، فالإعلام ردد حيناً من الدهر ما يلحقه الإعلام الغربي بالإسلام والمسلمين من أكاذيب، وأعان على ذلك رجال من العرب، ورضى

بمفردات ذات دلالات فاسدة، واستعان بها لضرب خصوم السلطة من التيارات الإسلامية، فاستيقظت السلطة على صوت نذير الخطر، فالغرب الذي صنع الأكاذيب وصدقت السلطات الحاكمة فى العالم الإسلامى ظنه، فصدق الغرب أكاذيبه وعدها حقيقة، فجعل يعاقب السلطات في العالم الإسلامي عليها، وقد كانوا أولياءه بالأمس، فتبرأ منهم، فتبرءوا هم من دينهم ومن كل ما يمتد إليه نسبه. وارتدت السلطة تشحذ الهمم للدفاع عنها وليس عن الإسلام فالدفاع ليس عن الإسلام وتصحيح مفهومه عند الآخر، بل المستهدف الدفاع عن أنفسهم، والإسلام يحتاج أولاً من يدافع عنه في العالم الإسلامي، ويصحح مفهومه ؟!

فالإسلام بات غريباً في أرضه، وأعاد بعض المسلمين طرح بعض الموضوعات قطعية الثبوت بالنص، فتشككوا في الحجاب واللحية، والجهاد، وعلاقة الإسلام بالسلطة، وأعادوا بسط موضوعات ليست جوهرية مثل الختان والخلع، وعمل المرأة، وطول اللحية والثياب، فشغلوا الناس بها عن النظر في القضايا الجوهرية، وحيزوا الإسلام وهمشوه فى قضايا لا تمثل أساس العقيدة ومصالح الناس الدنيوية، وفرّغوا الدين من مضمونه الشمولى العام وكثفوه فى قضايا غير أساسية.

والسياسيون يثيرون بعض القضايا الجدلية التي يتورط في تناولها بعض علماء الدين والمفكرين، فتصرفهم عن النظر في قضايا الفساد والتخريب التي تهدد الأمة مثل الاستنساخ ونقل الأعضاء واستئجار الأرحام، وظهرت مفاهيم مكذوبة نحو: الإسلام السياسي، الحرية الشخصية، حرية الفكر، الخطاب الديني، التطرف الإسلامي، والمسلمين المتطرفين، والحكم الديني، والدولة المدنية، والتنوير (يراد به التغريب) وغير ذلك من المفاهيم التي وظفت باطلاً أو استخدمت خطأ، ولم تجد من يصححها، أو يضعها في سياقها الصحيح، فاقتران التطرف بالإسلام طعن فيه، كمن يلحق المعصية بقدر الله تعالى والإعلام ينعق بما يحاك له وبما لا يعي، ويردد ولا يأبه بما يلقيه حتى تفشي المفاهيم في الناس، فينتبه بعد أمة لفداحة الخطأ، فيرتد على عقبيه، ليصلح ما أفسد، فيذهب نصحه سدى، كمن يرغب في التوبة وهو يغرغر غرغرة الموت.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هذه القضايا التي أثير فيها الجدل حديثاً في الدين كانت موضع جدل عبر تاريخ الإسلام ولم تحسم؟! أم أنهم جادلوا فيها حديثاً لضعف إيمانهم بها؟! وأرى الرأى الأخير، فضعف الإيمان بالدين تسرب منه الشك في موضوعات ليست

موضع خلاف، والجهل بالدين ولغته سببان رئيسان في تفسير النصوص في ضوء الثقافة الغربية تفسيراً باطلاً، وكذلك عدم فهم التراث والجهل بأسراره، وعدم تفسير النص في ضوء ظروفه التاريخية والاجتماعية التي عاصرت إنتاجه، فبعض المحدثين يعالجون النصوص القديمة معالجة معاصرة. أو يفسرونها في ضوء عصرنا الحديث، وقد يفسرون النص العربى القديم فى ضوء ثقافة أخرى، فيحملون النص على مفاهيم غريبة عن الثقافة العربية، وإليك نموذجاً يحتبي به بعض المعاصرين في الطعن في حكم الخلافة الإسلامية، فيزعمون أن الخليفة في الإسلام ادعى حقاً مقدساً في السلطة يشبه الحق الإلهي المقدس الذي ادعاه رجال الكنيسة في أوربا في القرون الوسطى التي عرفت بعصور الظلام، والحجة في ذلك بعض مدائح الشعراء في الخلفاء- والشعر مطية الكذب والرياء - وقد كانوا يرتزقون منه، وبعض التراكيب اللغوية التي وردت في خطب الخلفاء وأقوال العلماء، وما جاء في بعض المرويات، ومن ذلك: "السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم"، و "خليفة الله"[1]، وغير ذلك من التراكيب التي حملها بعض ضعاف العلم على وجهها اللفظي دون بحث معانيها العميقة والعلاقة التي تربط بين أجزاء التركيب، وموقع المعنى فيه من الحقيقة والمجاز، وعُرْف العربية في التعبير عن المعاني الخاصة، وغير ذلك من المسائل التي تتعلق بدلالة اللفظ على المعنى، وعبقرية العربية في التعبير عنه. والمعنى الذي ذهب إليه المحدثون بوجود علاقة مقدسة أو سلطان ديني ادعاه الخلفاء فاسد اعتقاداً؛ لأن العقيدة الإسلامية لم تمنح حقاً إلهيًا لأحد من دون الأنبياء، وهذه الحق لم يك لشخصهم بل لما يحملونه من رسالة أو دعوة، وما ينزل عليهم من وحي، ولم يثبت من تاريخ الإسلام مثل هذه الحقوق المفتراه وما أثيرت هذه القضايا إلا من ضعاف الفهم والإيمان حديثاً، وليس من العقل أن يصدق مسلم رشيد أن الحاكم نائب عن الله تعالى، ومفوض بالحكم منه، فهذه الأفكار بقية رواسب الجاهلية وغير المسلمين الذين قدسوا الحكام بدعوى وجود صلة نسب بينهم وبين السماء، فحملوهم صفات مقدسة كملوك الفرس والفراعين، وبعض ملوك العرب في الجاهلية الذين تسموا

(١) وردت بعض هذه التفسيرات لهذه التراكيب على نحو غير صحيح في كتابات المستشار سعيد العشماوي في كتابه "الإسلام السياسي"، والإسلام وفلسفة الحكم للدكتور محمد عمارة، وأحسب أن الأخير تراجع عن هذه الأفكار. وتردد مثل ذلك في الخطاب العلماني الذي تورط في بعض القضايا بغية اقتسام كعكة السلطة والاستحواذ عليها من العسكريين والأسر الحاكمة.

بأسماء فيها إعلاء لطبيعة النسب نحو "المنذر بن ماء السماء" ولم يك هذا الاعتقاد شائعاً في العرب الجاهليين. وتفسير هؤلاء لمثل هذه التراكيب اللغوية وهم كبير، ومردود عليهم، وما عليهم إلا أن يراجعوا آراء أهل اللغة في مثل هذه التراكيب، قال الحريري: "فأما قوله عليه السلام" والسلطان ظل الله في أرضه"، فالمراد به ستره السابغ على عباده، المنسدل على بلاده، ومن سنة العرب أن تضيف كل عظيم إليه جلت قدرته، كقولهم للكعبة "بيت الله"، وللحاج: "وفد الله"[1].

ويقول الشهاب الخفاجي: "وأما حديث السلطان ظل الله في أرضه" فقد قيل في تفسيره: إن الظل هو النعمة، وقيل الحفظ، وقيل: الهيبة، وقيل: استعارة، ووجه التشبيه أن ظل الشيء يحكيه ويناسبه في الجملة، والسلطان كذلك، فإنه ينتظم بوجوده مملكته كما ينتظم بالحق – جل عن التشبيه والنظير– سلسلة الممكنات؛ ولأن الظل يتنعم به ويلتجأ إليه عند اضطرام شرر الشر، ويناسبه قوله في الحديث "... ويأوى إليه كل مظلوم"[2].

وقال ابن الأثير: "السلطان ظل الله في الأرض": أي يدفع الأذى عن الناس[3]. وآراء السلف ليس فيها شيء مما يمكروا به هؤلاء المتفيهقون الذين يدعون التنوير، وهم أهل تضليل وتزوير ويخوضون في ظلمات الجهل! والأبيات التي احتجوا بها في تأليه الحاكم في دولة الخلافة ليست بحجة في أحكام الشرع، أو أحكام التاريخ؛ لأنها ليست قطعية الصدق، وليس الشعراء بحجة في الحكم، قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ*وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢٤ – ٢٢٧]. وآراء العلماء فيهم معلومة، خبرتنا بها كتب التفسير والحديث والفقه والأدب، وتراجم الشعراء تغني عن القول فيهم[4].

---

(١) درة الغواص للقاسم بن على بن محمد الحريري. بشرح الشهاب الخفاجي.تحقيق عبد الحفيظ على القرني، دار الجيل، مكتبة التراث الإسلامي ط١٤١٧/١هـ–١٩٩٦م . ص٣٦٦.

(٢) ارجع إلى: درة الغواص ص٣٦٧ "الحاشية".

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير جـ٣/٥٦.

(٤) ارجع الي: كتابنا " الشعر في عصر النبوة " طبعة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى، وقد ناقشت فيه موقف الإسلام من الشعر ص ٧ : ٢٤.

فالشعر لا يخلو من صنعة أو خيال أو مبالغة، ولا تنسى رأى بعض النقاد الذين رأوا أن أجمل الشعر أكذبه، وشعر المدائح يقال للتكسب أو لحاجة، وبعض الشعراء نسبوا للبلاط الذي امتدحوه، فالأخطل مثلاً "شاعر أمير المؤمنين" [عبد الملك بن مروان]، وكان نصرانياً، قال مادحاً يزيد بن معاوية لفضل عليه؛ ولَّما يتول الخلافة بعد:

فلولا يزيد بن الإمام أصابني قوارع يجنيها عليّ لساني

و"الإمام" يعني به معاوية ﷺ، ومعناه رأس الناس وسيدهم، وليس في دلالته المعنى الذي تبناه الشيعة لمفهوم الإمامة التي ترتبط بآل البيت، فالإمام يطلق عند العرب على كل رئيس أو أمير، وهو في اللغة عام للمؤمن والكافر، وجاء بهذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى في رؤساء الكفار: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص:٤١].

فالإمام يعني المقدم على الناس سواء أكان براً أو فاجراً، وجاء في دعاء المؤمنين: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤].

أي اجعلنا على رءوس الناس في التقوى أو اجعلنا مقدمين في المتقين، واللفظ يخصص بالاستخدام أو السياق، فالإمام عند الأصوليين إمام الصلاة، وإمام الناس أي الخليفة، والإمامة العظمى يراد بها الخلافة والإمامة الصغرى إمامة الصلاة، والإمامة عند الشيعة لا تكون إلا في آل البيت وأئمة المذهب، وقد اختارت الشيعة لقب إمام لرؤسائهم وأئمتهم، ومفهومه عندهم يختلف عن مفهوم الإمام عند أهل السنة، ويقصد به: إمام الصلاة أو إمام المسلمين "الخليفة".

ولفظ القرآن الكريم يعالج معجمياً في ضوء المعنى اللغوي العام الذي عاصر نزول نصه، ولا يعالج في ضوء المفاهيم التي لحقت بالمعنى اللغوي بعد زمن النزول.

وبعض المحدثين شككوا في الأحاديث التي ورد فيها لفظ الإمام مدعين أنها من وضع الشيعة أو أن الراوي استبدلها من مرادفات لها نحو الحاكم، أو الأمير، وهؤلاء واهمون؛ لأن لفظ الإمام سبق ظهور الفرق، فهو من الألفاظ الأصيلة في لغة العرب، وسبق نزول القرآن، وليس من وضع الشيعة، فالشيعة اختصوه بدلالة اصطلاحية فقط تتعلق باعتقادهم في الإمامة، وأهل السنة استخدموه أيضاً، والأحاديث التي وردت بها ألفاظ: الإمام، الحاكم،

الخليفة، السلطان، الملك، الأمير، الرئيس، رواها أصحاب الكتب الستة الصحاح، وبعضها متفق عليه(١).

ولفظ الإمام الذي يقصد به الخليفة لا يحمل في مضمونه حقاً مقدساً للحاكم أو تفويض من الله أو أنه معصوم أو موكل بحق إلهي مقدس، فهذه الطروحات صدى للثقافات الغربية العلمانية التي ترى أن الحكم الديني يدعي حقوقاً مقدسة يمارس بها حقوقاً مكتسبة، فتعاقب مخالفيها بالحرمان من صكوك الغفران، وتحاكمهم بتهمة التمرد عليها والتجديف، ويرون أن طاعتهم على الناس مطلقة واجبة؛ لأنهم يحكمون نيابة عن الله، أو خلفاء له في الأرض والخلافة عندهم تعني الوكالة، فالله تعالى فوض إليهم حكم الناس وأعطاهم في ذلك حقاً مقدساً؛ فحكمهم حكماً إلهياً مقدساً، وكان للصراع الذي قام بين الكنيسة والعلمانيين صدى بين مثقفي المسلمين، وقد أثار هذا جدلاً بينهم حول الخليفة في الإسلام، وكان سبباً مباشراً في سقوط الخلافة الإسلامية المتمثلة في السلطان العثماني (١٩٢٤م) وهي الدولة التي عاصرت نكبة الحضارة الإسلامية. وزعم بعض المحدثين أن عبارة "خليفة الله" التي وردت في مدائح الشعراء فيها شيء من تقديس الحاكم، وليست هذه التراكيب إلا من باب المجاز أو من باب إضافة كل شيء ذي قيمة إلى شيء أعظم منه في المنزلة، فأضيف لفظ الخليفة وهو من الناس بمكان إلى الله تعالى جل قدره، وهذا من سنن العرب في التعبير عن المعاني الخاصة، أو من باب المبالغة في المعنى، قال الأخطل مادحًا رغبة في العطية(٢):

إلى امرئ لا تعدِّينا نَوَافله ... أظفره الله فليهنا له الظفرُ

الخائض الغمرَ والميمون طائره ... خليفة الله يستسقي به المطرُ

---

(١) ارجع في ذلك إلى "معجم ألفاظ الحديث"، والأحاديث التي جاءت فيها في الكتب الستة، وقد تناولت ذلك في كتابي تاريخ الحكم في الإسلام، مؤسسة المختار، ط١/٢٠٠٢، ١٤٢٢هـ ص١٦٠ – ١٦٥. وارجع إلى صحيح البخاري (كتاب الأحكام) وصحيح مسلم كتاب الإمارة، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، وسنن أبي داود، وفيها رد على ما كتبه الدكتور محمد عمارة في كتابه "الإسلام وفلسفة الحكم". دار الشروق ص٣٣ – ٣٥. وسعيد العشماوي في كتابه : "الإسلام السياسي. دار ابن سينا، وغيرهما ممن يفسرون التاريخ واللغة في ضوء الثقافة الغربية، وقد فسر الشيخ على عبدالرازق ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢٢] فجعلها بمعنى السيطرة السياسية، فادعى قطع العلاقة بين الدين وسياسة أمور الناس وحكمهم.

(٢) شعر الأخطل، رواية محمد بن العباس اليزيدي، طبعة الأب أنطون صالحاني ص٢٩٣.

و"خليفة الله" لا تعني الوكالة المقدسة، ومثلها: "سلطان الله" التي وردت في خطبة زياد بن أبيه: "إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذاده، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا" فسلطان الله تعني أن كل سلطة من الله تعالى أعطاها هبة لبعض عباده، فيحكمون الناس بحقها، وهو العمل فيها بطاعة الله، ولا طاعة لمن لم يطع الله تعالى، وليس في ذلك خلاف بين العلماء.

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ "المُلْك" يراد به السلطة أو الحكم، فالعرب كانت تعبر عن الحكم أو السلطة بلفظي "الملك" و"الإمارة" أو "الإمْرَة"، قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء ...﴾[البقرة:٢٥١]. فالملك في الآية لا يعني وراثة العرش، فداود عليه السلام لم يكن ابنًا لجالوت، والآية تشير إلى حكمة الله البالغة في تناوب الحكام في السلطة؛ لئلا يستمر الظلم في الناس، فجعل السلطان بينهم دولاً ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:٢٥١] فالله تعالى يحفظ عباده في الأرض بخشية بعضهم بعضًا، فيكفوا عن الظلم، أو أن بعضهم يغيرون ما يفسده الآخرون.

ومثل ذلك "روح الله" التى يفسرها النصارى على أنها تعنى ذات الله فى المسيح، وأنها دليل فى القرآن على أنه الله تعالى، وقد وقعت الإضافة للدلالة على أن الروح من أمر الله تعالى فنسبت إليه تعظيماً لها، قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر:٢٩] يريد آدم عليه السلام وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾[مريم:١٧] يريد الملاك، إن الآيات: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[التحريم:١٢]﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١] وغيرها، ليست بدليل على أن روح عيسىﷺ تعنى الله تعالى فإضافة الروح إلى ربِّ العزة عامة فى كل روح للتعظيم، وأنها سر من أسراره سبحانه وتعالى.

وقد يكون غموض المعنى سبباً في تطور الدلالة واختلافها في الألفاظ التي يتواصل بها المجتمع، وقد يقع اختلاف الدلالة نتيجة الخطأ في الاستعمال أو غموض الدلالة، ولكن السياسية لا تخطئ في مفرداتها بل تعمد إلى إزاحة الألفاظ عن دلالتها الأصلية، فتمنحها مفاهيم جديدة ترضيها، ومثال ذلك مصطلح "الإسلام السياسي" ويعني به التيار الإسلامي الذي يدعو إلى إسلام مؤسسات الدولة في الظاهر والباطن دون فصل بين الدين والدولة،

وهذا التيار يعرف عند بعض الباحثين باليقظة الإسلامية أو الإحياء الإسلامي. والإسلام في الاعتقاد لا يتجزأ، فالمسلم مسلم في كل أمره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] والحقبة الأولى من تاريخ الإسلام لا تجزئ الإسلام، ولم يعرف الإسلام تجزيئاً إلا في ظل الحضارة الغربية التي تفصل بين الدين والحياة، ولهذه الثقافة صدى بين المثقفين الشرقيين. ومصطلح "الإسلام السياسي" وهم وقع فيه المعاصرون فليس هناك إسلام سياسي، وإسلام صناعي، وإسلام زراعي، بل الإسلام إسلام فشأن المسلم كله لله تعالى، فالإسلام دين شمولي.

ويطلق بعض المفكرين على العقدية الإسلامية (نسبة إلى العقيدة) الأيديولوجيا الإسلامية، ويقصد بها أيضاً ما يعرف بالإسلام السياسي، والأيديولوجيا: ظاهرة فكرة تتعلق بالاعتقاد السياسي الجماعي، وتستخدم في حقل السياسة، فاتسع استخدامها، فأطلقت على الاتجاه الإسلامي الذي يدعو إلى دولة إسلامية أو أسلمة مؤسسات الدولة ظاهراً وباطناً، وهذا المصطلح قد يتسق مع الفكر الغربي، ولكن المسلم ليس له اعتقاد سياسي ديني، فالإسلام لم يضع نمطاً ثابتاً لشكل الدولة، وأرجأ هذا النمط إلى اعتبار مصالح الدين والدنيا، فالمسلمون ليسوا مقيدين بنظام دولة ثابت، فالدولة ضمن مصالح الدنيا التي يعالجها المسلمون في إطار شرعي يحقق المصلحة العامة على ألا تخالف أصلاً من أصول الدين، وفقهاء الأمة عالجوا موضوع السلطة اجتهاداً لا نصاً، فلا اجتهاد مع نص، ومن ثم لهم فيها رؤى متعددة، يربط بينها مراعاة مصالح الدين والدنيا[١].

والاضطراب الثقافي والسياسي والفكري الذي يمتحن فيه العالم الإسلامي والعربي نتيجة حتمية للصراع بين ثقافتين بينهما خلافات جوهرية في قضية العقيدة، فالعقيدة الإسلامية تمثل جوهر فكر المسلمين، وتجمعت حولها روافد الثقافة العربية التي نشأت لدواعي دينية وغايتها الدين، والثقافة العربية نفسها شارك في تشييدها مسلمون من مشارب وألوان وأعراق مختلفة، وجمعهم فيها الدين واللغة العربية، فالدين المحور الرئيس الذي تدور حوله الثقافة الإسلامية العربية بيد أن الثقافة الأوربية الحديثة تخالفها في هذا الأصل؛ لأنها قامت على أسس بشرية ومادية متجردة من النوازع الدينية، فالسلطة الدينية في الفترة التي

(١) ارجع إلى: الأيديولوجية، نحو نظرة تكاملية، محمد سبيلا، المركز الثقافي العربي، لبنان.

سبقت عصر النهضة كانت ضد التحديث والحضارة، فظهر تيار معارض، وأعلن ثورته على كل ما يتعلق بالسلطة التي ادعتها الكنيسة، وحقق هذا التيار نجاحًا سريعًا بفضل ما كان يؤمن به من أسس علمية منهجية استطاع بها نقل أوربا من عصر الظلام إلى عصر الطاقة، ولكننا لا نستطيع أن نسميه عصر النور؛ لأنه مازال مظلمًا في بعض جوانبه الأخلاقية وبعض مواقفه السياسية، فالمفكرون وضعوا نسقاً فكرياً يقوم على تجاربهم الشخصية ومشاربهم الثقافية، وليس لهم مرجعية ثابتة، يحتكمون إليها جميعاً، ومن ثم تعددت النظريات، واختلفت المذاهب، وظهرت أفكار ثم خبت، وبعضها أخفق؛ لأنه لم يقدم نسقاً عادلاً يتمتع بالاستمرار والعموم والصلاحية لكل فرد.

والعقيدة الإسلامية تمثل نسقاً عاماً مرجعياً يحتكم إليه كل المسلمين، وهي أهم وشيجة اجتمع عليها المسلمون، وجعلت منهم كياناً متقارباً، بيد أنها تعيش مأزقاً حرجاً، فالمسلمون قاطبة في العالم الحديث لم يقدموا نسقاً واحداً يتعادلون به مع الثقافة الأوربية، ويحدثون به مزاوجة بين ثقافتين مختلفتين، ولكنهم يعيشون منفصمين عن جوهر شخصيتهم العقدية، فهم ينتسبون إلى الإسلام، ولكنهم لا يتمتعون بشخصية إسلامية تميزهم عن الآخرين، ويعجزون عن إقامة توازن بين ثقافتهم التراثية وبينهم مشاربهم المعاصرة، فمازالت هنالك فجوة، والمسلمون لا يستطيعون سدها ليصلوا بين حضارتين، ذلك أنهم منقسمون على أنفسهم بين اتجاهين الأول تراثي قديم يتوجس من معطيات الحضارة الغربية، ولا يرى منها إلا سلبياتها، واتجاه يوالي الحضارة الغربية فكرياً وسلوكياً، ويسخر من معطيات ثقافته التراثية، وهذا التيار استطاع الاقتراب من السلطة، ويوجد اتجاه ثالث لا يراه رجال السلطة ولا يحتفون به حفاوتهم بأرباب المهن الترفيهية، وأهل هذا الاتجاه المشتغلون بالعلوم التجريبية، وأمثال هؤلاء هم رواد الحضارة الغربية وحملة مشاعل التقدم فيها، فالسلطة تتجاهلهم، ولا تلحظهم برعايتها، وليس لهم خطاب في الساحة الثقافية، ولا يعطيهم أصحاب الخطاب النظري مساحة من الكلام، فالسلطة تعتمد على الكلاميين؛ لأنهم يقودون حملتها الدِّعائية، ويصنعون خطابها اللفظي، ومازال الخطاب العلمي غائباً، ومهمشاً إلى جوار الخطابات الكلامية التي صنعت خيالاً سياسياً يسع كل أنظمة العالم، ومازلنا في شغل بالخطاب الجدلي عن إقامة مؤسسة علمية تحتكم إلى العقل والعلم التجريبي، وخطاب السلطة أجوف هش لا يملك نسقاً علمياً، لإقامة دولة متقدمة حضارياً، وأقام بديلاً له خطابات كلامية متناحرة،

ودعمها سياسياً، فشغلتنا، ودمرت طاقاتنا وحرمتنا من أن نكون بشراً صالحين، فالحروب الكلامية في العالم الإسلامي صرفته عن معارك الإنتاج، والعالم العربي يعيش أسوأ مراحل تاريخه، ومازال يبحث قضية الهوية، وانشغل عن حاضره بقضايا تجديد الخطاب الجدلي ليفتح له آفاق التقدم الكلامي ! والأزمة السياسية تكمن فى الذين وصلوا إلى السلطة بقوة السلاح، ودورهم السرى وأعمال القرصنة لحساب الأحزاب التى تهيمن على السلطة، فاستطاعوا من خلال رصيدهم الدموى الوصول إليها، وليس لديهم رصيد معرفى أو مرجعية يحتكمون إليها غير الأخذ بالقوة غير مبالين بالكفاءات وأصحاب الخبرة الثقافية، وأعوان هؤلاء من القراصنة والجلابيب لا من أصحاب الرأى والعلم.

وقد تدنى مستوى الخطاب العربى تأثراً باختفاء الطبقة المثقفة أو تراجعها عن القيادة فتسلم مقادة الثقافة أفراد غير أكفاء، وسيطر على السلطة رجال غير أكفاء أمام تراجع المثقفين عن المشاركة السياسية وعزلتهم فتردى الوضع الثقافى والسياسى، فرجال السلطة غالباً عسكريون ومهنيون من غير المثقفين، وانعكس ذلك على علاقتهم بالثقافة فلا يعتبطون كثيراً بالمثقفين، فليسوا بموضع رعايتهم ودعمهم، واستشرى وباء الجهل بين الإداريين وصانعى القرار والهواة، وتردى الوضع العلمى فى كثير من أصقاع العروبة، فظهر خطاب سياسى هزيل لا يتمتع بعناصر لغوية مؤثرة ولا يتضمن فكراً واعياً ولا يعبر عن الواقع.

** ** ** **